الأمثال العربية القديمة

بقلم الأستاذ / عبد الرحمن شلش

هذا الكتاب دراسة موضوعية جادة لأمثالنا العربية القديمة لما يتسم به من دقة في المنهج ، ووضوح في التفكير ، واستقصاء لجزئيات الموضوع ، ونصاعة الحجج والبراهين .

ومؤلف الكتاب هو المستشرق الألماني رودلف زلهايم الذي يعتبر واحدا من المهتمين بالدراسات العربية ، ونشر كتابه باللغة الألمانية في عام ١٩٥٤م .

وأما مترجم الكتاب فهو الدكتور رمضان عبد التواب أحد باحثينا الممتازين وترجع قصته مع ترجمة الكتاب الى عام ١٩٦٢ حين انتهى من دراسته للدكتوراه في ميونخ بألمانيا الغربية ، وأراد أن يترجم بعض آثار المستشرقين الجادة في مجال الدراسات العربية ، فكان هذا الكتاب من أوائل الكتب التي تطلعت نفسه الى ترجمتها .

وفي هذه الاطلالة على الكتاب ، يهمنا أن نتعرف على أهم ما جاء فيه من خلال عرضنا السريع له .

يقول المترجم في مقدمته التي تتصدر الكتاب حول أهمية هذا النوع من التراث الشعبي : « الأمثال عند كل الشعوب مرآة صافية لحياتها ، تنعكس عليها عادات تلك الشعوب في رقيها وانحطاطها ، وبؤسها ونعيمها ، وآدابها ولغاتها . وقد وصفها ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد بأنها : وشي الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلي المعاني ... تخيرها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها في كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء مسيرها ، ولا عم عمومها . كما يقول عنها أبو الحسن بن وهب في كتابه البرهان في وجوه البيان : أما الأمثال ، فان الحكماء والعلماء والأدباء ، لم يزالوا يضربون الأمثال ، ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأمثال ، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبا ، وأقرب مذهبا .. ولذلك جعلت القدماء أكثر آدابها ، وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم » .

ويقول المترجم عن مكانة الأمثال عند العرب : « بلغت العرب في ضرب الأمثال شأوا لا يدرك ، فسلكوا فيها كل مسلك ، ولم يخل كلام لهم من مثل تضاعيفه ، كما زينوا بها فنون القول وتصاريفه ، فلا عجب أن يهتم بها اللغويون العرب الذين جمعوا لنا منها قدرا كبيرا منذ فجر التأليف في العربية ، وتناولوها بالشرح والتفسير ، كما جمعوا لنا قصصها التي حدثت بالفعل ، أو حيكت حولها وبينوا لنا موردها ومضربها ، ورتبوها في ضروب مختلفة من الترتيب والتبويب » .

ويشير المؤلف المستشرق في المقدمة الى طبيّعة كتابه قائلا : « هذا الكتاب نتيجة الاشتغال باعداد نشرة محققة لكتاب (الأمثال) لأبي عبيد القاسم بن سلام ، بشرح البكري ، ولا يدعي هذا الكتاب كمالا . لأن الحظوة التي نالتها الأمثال وتنالها عند اللغويين والأدباء ، أدت الى تأليف الكثير من الكتب فيها ، وتخصيص الفصول الكاملة في كثير من كتب الأدب » .

ويحتوي الكتاب على خمسة فصول ، يبحث كل منها في جانب من جوانب الموضوع .

يتناول الفصل الأول : الأمثال العربية وقصصها ، ويعرف المثل من خلال أقوال علماء العرب ، فقد عرفه الزمخشري بقوله : « المثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير » . وقال المبرد : « المثل هو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول » . وقال الفارابي : « المثل ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه » . وقال ابن السكيت « المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ » . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : الأمثال ، وهي حكمة العرب في الجاهلية والاسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق ، بكناية غير تصريح ، مجتمع لها بذلك ثلاث خلال : ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن التشبيه » .

وكان المؤلف حريصا على أن يضم لكتابه مجموعة من أمثالنا العربية القديمة التي يجدر بنا ذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر ، فمن الأمثال التي تعرض المسلمات بوضوح : (العصا من العصية) . و (التمرة الى التمرة تمر) . ومن الأمثال التي تتعرض لصورتين من صور المعارك : (لا يجتمع السيفان في غمد) و (عصا الجبان أطول) و (أسمع جعجعة ولا أرى طحنا) . ومن الحكم التي صارت أمثالا : (السر أمانة) و (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) و (العدة عطية) و (شر ما نال امرؤ ما لم ينل) .

ومعم هذه الأمثال لها مقابل حرفي في كثير من الأحيان في أمثال الشعوب الأوربية مما نتج عنه تشابهها ، وهذا يرجع الى تأثير الثقافات ، واختلاط الشعوب .

وتنقسم الأمثال العربية بحسب أعمارها – كما أشار المؤلف – الى ثلاثة أقسام ، وهي الأمثال القديمة ، فالأمثال الجديدة أو المولدة وهي التي جمعت وأضيفت الى الأمثال القديمة في مجموعات الأمثال منذ القرن الرابع الهجري ، وقد جمعها الميداني في كتابه (مجمع الأمثال) . ثم الأمثال الحديثة ، وهي التي جمعها الأوروبيون وغيرهم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين من مصر وسوريا وفلسطين وغير من الدول العربية ونشروها .

ومن المعروف أن كل مثل عربي كان مرتبطا بقصة وكانت تلك القصص تروى في كتب الأمثال عند العرب ، وغالبية الأمثال المتداولة حتى اليوم كانت مرتبطة بقصص ، ولكن مع مر الزمن نسيت القصص ، وبقيت الأمثال نرددها في أحاديثنا ، ونكتبها في كتاباتنا .

ترى متى بدأ اشتغال العرب بالتأليف في الأمثال ؟ .

هذا ما نتعرف عليه في الفصل الثاني الذي يتعرض لتناول كتب الأمثال قبل أبي عبيد ، فيرجع المؤلف الاشتغال بالتأليف في الأمثال الى أوائل عصر الخلفاء الأمويين ، ويقال عن عبيد بن شرية الجرهمي وعلاقة بن كريم الكلابي وصحار بن عياش العبدي أنهم ألفوا كتبا في الأمثال ، ويظهر ان مؤلفاتهم قد فقدت منذ عصر مبكر . وقد جمعت صحائف في الأمثال في نهاية العصر الجاهلي قبل هؤلاء الرجال الثلاثة . غير أنه لم تصل أخبار مؤكدة عن كتب الأمثال ومؤلفيها الا من القرن الثامن الى القرن التاسع الميلادي أي النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة .

ويشير المؤلف الى أقدم مؤلف لكتاب في الأمثال وهو المفضل الضبي الكوفي من الذين عاشوا في عهد الدولة العباسية . كما يشير الى أبي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي العجلي وله كتيب في الأمثال ، والى غيره من البصريين الذين ضاعت كتب الأمثال التي ألفوها .

ويتناول المؤلف حياة أبي عبيد وكتاب الأمثال الذي كتبه في الفصل الثالث من الكتاب .. يقول عن كتابه :

« وصل الينا كتاب أبي عبيد في الأمثال ، في عدة مخطوطات ، الأمر الذي لا يعد غريبا في كتاب محبوب ومشهور كهذا الكتاب » .

وكان أبو عبيد قد جمع في كتابه أكثر من ألف مثل ، ومائتين وعشرين بيتا من الشعر ، ومائة وثلاثين حديثا مع قصصها في بعض الأحيان ، وقسم كتابه الى أبواب في صنوف المنطق ، وفي جماع أمثال الرجال ، والأقربين ، والجود ، والمجد ، والاخاء ، والأموال ، والمعاش ، والعلم ، والمعرفة ، والجهل ، والبخل والذم ، وغير ذلك من الصفات . كما ذكر مصادر كتابه والرجال الذين روى عنهم مثل : الأصمعي ، وابن المثنى ، والمفضل الضبي وسواهم . والأمثال عنده مرتبة ترتيبا موضوعيا في تسعة عشر قسما ، مقسمة في داخلها الى أبواب مبدوءة في كل منها بالبسملة ، ويبدأ أبو عبيد دائما ـ وهو لغوي ـ بشرح المثل شرحا لغويا وافيا ، بعد أن يسبق ذلك بذكر مصادره . وانتشر كتابه في الآفاق انتشارا واسعا ـ كما ذكر المؤلف ـ فقد شغل العلماء في العالم العربي ، ولا سيما في المغرب وأسبانيا .

ويخصص المؤلف الفصل الرابع لشرح البكري لأمثال أبي عبيد ، فيتناول حياة البكري ، ومخطوطاته ، وأسلوب روايته للكتاب ومصادر شرحه ، وفضله في هذا الشرح .

ثم يتناول كتب الأمثال العربية القديمة بعد أبي عبيد في الفصل الأخير ، ومن بين هذه الكتب : كتاب أبي عكرمة الضبي ، وكتاب أبي محمد التوزي ، وكتاب يوسف بن السكيت ، وكتاب محمد بن حبيب ، وكتاب أبي اسحق الزيادي ، وكتاب الجاحظ .

ومعظم هذه الكتب غير موجودة الآن . أما الكتب الموجودة فمن أشهرها كتاب (جمهرة الأمثال) للعسكري ، وكتاب (مجمع الأمثال) للميداني ، وكتاب (المستقصى في أمثال العرب) للزمخشري .

تلك اطلالة على تراث الأمثال عند العرب من خلال رؤية مستشرق ألماني أحب هذا النوع من تراثنا ، فدرسه ، وتعمق فيه ، فكان هذا البحث القيم في أمثالنا العربية القديمة .

ولقد صدر الكتاب ـ وهو اضافة للمكتبة العربية في موضوعه ـ من دار الرسالة للنشر ببيروت .